مجزوءة الإنسان

تمهيد: مفاهيم ملتبسة: ماهية الإنسان ومشكلة الوعي

الوعي واللاوعي

المحور الأول: الإدراك الحسي والشعور الذات موضوع معرفة وتأمل

- أطروحة **رونيه ديكارت** :إدراك الأنا (نص: "الأنا والوعي")
- أطروحة **دافيد هيوم**: وهم إدراك الأنا (نص: "الوعي بالذات والإدراك الحسي")
- أطروحة **فريديريك هيغل**: (نص: الوجود المزدوج للإنسان")

المحور الثاني:الوعي واللاوعي: مظاهر اللاوعي ما الذي يحكم وجود الذات؟

- أطروحة **سيغموند فرويد**: (نص: "فرضية اللاشعور")
- أطروحة **غوستاف لوبون**: (نص: "اللاشعور فردي أم جماعي؟")
- أطروحة **ألان (إميل شارتييه)**: (نص: "نقائص فرضية اللاشعور")
- أطروحة **ليبنتس**: ("الوعي بالكليات يخفي اللاوعي بالجزيات")

المحور الثالث: الإيديولوجيا والوهم، هل الوعي قادر على إعطاء صورة حقيقية عن حياتنا الواقعية وعن ذواتنا

- أطروحة **عبد الله العروي**: (نص: "مفهوم الإيديولوجيا")
- أطروحة **كارل ماركس**: (نص: ما علاقة الوعي بالوجود الاجتماعي")
- أطروحة **نيتشه** (نص"الغريزة أقوى من الوعي")
- أطروحة **فرنسيس بيكون** (نص: "الأوهام المحدقة بالعقل البشري")
- أطروحة **فريديريك نيتشه** (نص: "الغريزة أقوى من الوعي")

مجزوءة الإنسان

تمهيد: القول في ماهية الإنسان

ما من تعريف للإنسان إلا وتم استشكاله ووضعه موضع شك ومساءلة، بدء من تعريف الإنسان بما هو الحيوان الصانع، إلى تعريفه بما هو الحيوان المفكر، مرورا بتعريفه بأنه الموجود الاجتماعي. ذلك أن علم سلوك الحيوان أثبت بما لا يدع المجال لشك مشكك أن من الحيوان من يقتدر مثل الإنسان على الإبداع والابتكار، وكذا على التفكير، ومن هنا بقي السؤال ما الإنسان سؤالا فلسفيا بامتياز. فهل حقا نستطيع تحديد ماهية الإنسان علما أنه يبدو تارة متلبسا لبوس الوعي وأخرى لبوس اللاوعي؟ تارة بمظهر العقل وأخرى بمظهر اللاعقل تارة يختص بصفاته عن الحيوان وأخرى يشاطره فيها.

إن الوعي بوصفه خصيصة إنسانية يطرح جملة إشكالات تتعلق ببيان طبيعته ووظيفته وقيمته وحدوده: فإذا تقرر أن الوعي خاصية فكرية يقتدر بها الإنسان على إدراك أحواله النفسية والعقلية الباطنية، وإذا تقرر أنها ذات ترغب وتحتاج، ذات تستعمل لغة، تعبر بها عن فكر، ويمارس سلطة، ذات تعيش في مجتمع، إذا تقرر ذلك فما علاقة الوعي بالنشاط العقلي العصبي؟ وهل الخوض في مجال اللاوعي من اختصاص العلماء أم من اختصاص الفلاسفة؟ وما علاقة الوعي باللاوعي؟ ثم كيف يستحيل اللاوعي إيديولوجيا؟

المحور الأول: الإدراك الحسي والشعور الذات موضوع معرفة وتأمل

☜ أطروحة ديكارت (*1596م- 1650م*) (نص: "الهوية والفكر المجرد")

يعتبر **رونيه ديكارت** أن الإنسان –الشخص- كائن مفكر وواع وحر ومريد، وليس التفكير مجرد صفة مضافة إلى ذاته، وإنما يشكل خاصيته الجوهرية ووجوده الحقيقي، فما دام الإنسان كائنا قادرا على ممارسة الشك، فإن هذا دليل على أنه حر، كما أن وعيه بذاته حاضر مباشرة أمام نفسه في منتهى الوضوح والشفافية، فالإنسان حسب ديكارت كائن متميز عن باقي الكائنات الحية الأخرى مادام جوهره هو التفكير، في مقابل الامتداد الذي هو جوهر المادة والطبيعة. يقول **ديكارت** في كتابه "تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الأولى": «أنا موجود ما دمتُ أفكر، فقد يحصل أنّي متى انقطعتُ عن التفكير تماما انقطعتُ عن الوجود بتاتا». فعندما تفكر الذات فإنها تعي وجودها بمعزل عن اتصالها بأشياء العالم الخارجي. وحقيقة وجود الذات بما هي فكر ووعي تكنى الكوجيطو، والتي بمقتضاها ينشأ تطابق واستغراق تام بين الوجود والوعي: فالوعي يصاحب كل حركات الإنسان وسكناته، وأول ما يتجه إليه وعي الإنسان هو ذاته فيغدو بذلك كل تفكير أو كل وعي تفكيرا بالذات ووعيا بأفعالها. وعملية ارتداد الوعي إلى ذاته تسمى: "العودة إلى الذات والنظر التأملي في أحوالها"، في هذه العودة، وبهذا النظر تمسك الذات بحقيقة أحوالها وتنكشف أمام نفسها في منتهى الوضوح والشفافية كذات تشك وتفهم وتتصور، تثبت وتنفي، تريد وتتخيل وتحس أيضا. محصول كلام **ديكارت** أن طبيعة الشخص طبيعة عاقلة مفكرة واعية، أو هو ذات تميز جوهرها الفكر ووعيها بذاتها حاضر مباشرة أمام نفسه في غاية الشفافية.

☜ أطروحة دافيد هيوم (*1711- 1776*) : وهم إدراك الأنا (نص: "الوعي بالذات والإدراك الحسي")

ينتمي **دافيد هيوم** إلى الفلسفة الحديثة التي اهتمت بمشكلة المعرفة، تلك الفلسفة التي صاحبت ظهورها خصائص عدة كضرورة امتلاك المنهج، والاهتمام بالذات، والنص الذي بين أيدينا هو عبارة عن مساهمة منه في الإجابة عن السؤال الفلسفي المتعلق بإدراك الذات وإدراك العالم. فكيف يمكن إدراك الذات حسب **هيوم؟**

عرض **دافيد هيوم** دعوى **ديكارت** التي تؤمن بامتلاك شعور حميمي بالأنا، والإحساس المستمر بوجود الأنا وجودا بسيطا

ويقينيا يقينا برهانيا. يقول **هيوم**: «هناك بعض الفلاسفة الذين يظنون أن لدينا في كل حين شعورا حميما بما نسميه "أنا"، وأننا نحس بوجوده وباستمرار وجوده، وأننا متيقنون من هويته وبساطته التامتين يقينا أكثر من ذلك الذي يكون بواسطة البرهان»، وبعد ذلك دحض فلسفة ديكارت عن طريق تأسيس تصور فلسفي جديد يقوم على وصل الوعي الذات بالإدراك الحسي، فالوجود إدراك -كما يقول **باركلي**- حيث يدرك الإنسان وجوده عند ملاقاة المظاهر الحسية، أو عند الاصطدام بالبرودة والحرارة، والنور والظلام، الحب والكراهية، والألم واللذة. وعليه لا يمكن عقل الذات دون إدراكٍ لدرجة أن غياب الإدراك هو إعلان بغياب الذات كما هو الحال بالنسبة لحالات النوم الهادئ لدرجة الإحساس بعدم الوجود. كما بسط قوله في حالة غياب الذات عن الإدراك كما هو الحال في حالة الموت الذي هو في حقيقته عدم بحت وخالص، وبموجب هذا التصور تجسدت ماهية الإنسان في إدراكاته الحسية الصادرة عن الشعور. فكيف يتصور **فريديريك هيغل** ماهية الإنسان؟

☜ أطروحة فريديريك هيغل (*1770- 1831*) : (نص: "الوجود المزدوج للإنسان")

في أفق الفلسفة الجدلية المثالية المؤمنة بالمطلق، والحاملة لتصور جدلي متطور بسبب عنصر السلب أو النفي الذي يدخل في تكوينه، (الأطروحة، نقيضها، نقيض النقيض)، قدم **فريديريك هيغل** تصوره الفلسفي القائم على القول بازدواجية الوجود الإنساني. فمن جهة أولى: يوجد كما توجد باقي أشياء الطبيعة، أي يوجد بشكل مباشر، وهو الذي يسميه الوجود في ذاته وبهذا المعنى يصير وجودا بسيطا ثابتا ومباشرا يفتقر إلى الوعي، ولا يمتلك أية حقيقة عن ذاته. ومن جهة ثانية هو وجود كروح أي كموجود من أجل ذاته، أو الوجود لذاته، وهو ذلك الوجود الإنساني المتسلح بالوعي والمتسم بخاصية التجريد، أو الوجود الذي يتأمل الذات ويفكر فيها.

ولكي يتحقق الوجود من أجل ذاته، يكون الإنسان أمام صورتين: الأولى نظرية يكتشف فيها الإنسان ذاته من الداخل ويتأملها بشكل مجرد ويتعرف أعماقها (التصور المثالي). أما الصورة الثانية فهي العملية المتمثلة في النشاط العملي الهادف إلى تحقيق ذاته عن طريق تحويل أشياء العالم، وصبغتها بطابعه الخاص. كل ذلك بهدف إزالة الغرابة عن الوجود وبغية إثبات الذات كما هو الحال بالنسبة للطفل الذي يرمي البركة بالحجر ليتعرف على الدوائر في الماء وقياس مدى تأثيره في العالم. وبهذا يصير الإنسان هو "وعي للذات معترف به من قبل الغير =الآخر"..

المحور الثاني:الوعي واللاوعي: ما الذي يحكم وجود الذات؟ مظاهر اللاوعي

تمهيد: استأسد في تاريخ الفلسفة توجه فلسفي موسوم بفلسفة الوعي أو الكوجيطو، ولا غرابة في ذلك فالمشروع الفلسفي الديكارتي في جملته يقوم على مسلمة أن الفكر أو الوعي هو جوهر طبيعة الإنسان الذي يخوله موقعا مخصوصا داخل النظام الكوني. إذ أقام **ديكارت** تماهيا بين الذات والوعي، باعتبارها ذاتا واعية وجوهرا مفكرا يصاحب الوعي كل أحوالها الفكرية من شك وتذكر وتخيل...، إلى أن تعرضت فلسفته لمجموعة من الهجمات الفكرية اعتبرت أن اللاوعي يستحكم في الإنسان أكثر من الوعي. فما الذي يحكم وجود الذات إذن؟ هل الوعي أم اللاوعي؟

☜ تصور التحليل النفسي: أطروحة سيغموند فرويد (*1856*م-*1939*م): (نص: "فرضية اللاشعور")

يقدم **سيغموند فرويد** أطروحته القائلة بعلمية فرضية اللاشعور وبضرورتها وبمشروعيتها. إذ أكد عجز ونقص معطيات الشعور عن تفسير كل أفعال الإنسان السوي والسليم على حد سواء، باعتبار أن اللاشعور هو الذي يجعل أفكارنا متماسكة ومفهومة ومنتظمة. ومن هنا ضرورة استكمال معطيات الشعور بمعطيات اللاشعور من أجل أن يحالف النجاح تفسير كل أفعالنا. وبهذا المعنى فقد تجاوز كل التصورات السائدة قبل مدرسة التحليل النفسي، والتي كانت تؤكد على ضرورة الاكتفاء بالشعور من أجل تفسير كل أفعالنا.

بهذا المعنى رأى **رائد مدرسة التحليل النفسي** أن الذات لا تعي ذاتها، ولا تدرك حقيقة سلوكاتها، ولا هي سيدة على أفعالها، فالوعي الشفاف بالذات مجرد وهم وخرافة، وبيان ذلك أن ثمة سلوكات وعمليات تحصل داخل الذات وتصدر عنها دون أن يعلم الوعي عنها شيئا، فثمة ظواهر وسيرورات لاشعورية تعتري الإنسان في يقظته، وفي منامه، وتوجه أفعاله دون أن يطالها وعيه. وبهذا **ففرويد** يرفض اختزال الذات في الوعي وحده، لأن ثمة قارة جديدة أكبر ومجهولة تسكن الحياة النفسية للإنسان وتتحكم في أفعاله دون أن يدركها وعيه، وهي اللاوعي.

جملة الكلام، ليس الوعي هو الذي يؤسس الذات، فهو لا يستغرقها كلية، لأن الذات امتداد واسع، معظم مناطقه مجهولة للوعي، بل يستغرقها اللاوعي، هاهنا لم يعد الوعي جوهرا للذات، بل توارى فصار عرضا من أعراضها بعدما حل محله اللاوعي. فكيف يتصور **غوستاف لوبون** العلاقة بين الوعي واللاوعي؟

☜ أطروحة غوستاف لوبون (*1841- 1931*): (نص: "اللاشعور فردي أم جماعي؟")

بعدما قام **غوستاف لوبون** بتبني نفس نظرية التحليل النفي القائمة على المزج بين الشعور واللاشعور، على أهميته اللاوعي في فهم أفعال الوعي، انتقل بعد ذلك إلى تعديل تصور **فرويد**، إذ أضحى يتحدث عن اللاشعور الجمعي. فقد اعترف أننا لا ندرك إلا جزء صغيرا من اللاشعور. بل أن المحلل اليقظ والملاحظ الدقيق يعجزان عن إدراك كل الدوافع اللاشعورية الخفية. ومعناه أن تأثيرات اللاشعور الموروثة عن الماضي بواسطة العرق كوراثة استثنائية.

هذه الوراثة الاستثنائية تجعل كل أفراد العرق يتشابهون، بل "إن الناس الأكثر اختلافا بواسطة ذكائهم يتوفرون على غرائز وانفعالات وإحساسات متماثلة أحيانا". وبهذا ردم **غوستاف لوبون** الهوة بين أكثر الشخصيات نضجا وبين أبسطها. فقد نتفق على وجود فوارق فكرية كبرى بينهما، لكن تلك الفوارق ستذوب بالضرورة إذا تعلق الأمر بالإحساس، يقول: "بين عالم مشهور وصانع أحذية يمكن أن توجد هوة عميقة من حيث العلاقة الفكرية، ولكن الفرق بينهما يكاد يكون منعدما أو ضئيلا بشكل كبير فيما يخص المزاج والاعتقادات".

هكذا إذن حافظ **غوستاف لوبون** على نفس أطروحة **سيغموند فرويد** لكن بعد تعديلها، فقد استعاض عن اللاشعور الفردي بلاشعور جمعي يعود بالأساس على الماضي العرقي. فهل سيقبل **آلان** بفرضية اللاشعور هذه؟

☜ التصور الفلسفي: أطروحة ألان (إميل شارتييه): (نص: "نقائص فرضية اللاشعور")

رفض **آلان** فرضية اللاشعور، وأكد بالمقابل بأن أفكارنا هي ما صدر عن الذات الفاعلة، أي عن الشخص المتكلم، وليس ما صدر عن اللاشعور، كما بين صعوبة فهم اللاشعور واعتبرها مجرد خيال. كما دحض اعتقاد **فرويد** بأن يكون الإنسان غامضا أمام نفسه. كما نبه إلى ضرورة تجاوز أخطار لفظ اللاشعور كي لا نقع في القول بأنا آخر له أهواؤه الخاصة، وحيله هو اللاشعور الذي يشبه تارة الملاك الشرير، وأخرى الناصح الشيطاني. ومن أجل إبطال تصور رائد التحليل النفسي أخذ نفس حجته "لما كانت الغريزة لاشعورية فإن الطبيعة الإنسانية بدورها هي لاشعورية" فقلبها "لما كانت الغريزة شعورية فإن الطبيعة الإنسانية بدورها هي شعورية" حيث لا يوجد أمامنا شعور حيواني.

☜ أطروحة ليبنتس: ("الوعي بالكليات يخفي اللاوعي بالجزيات")

في كتاب *المونادولوجيا*، تحدث **ليبنتز** عن نظرية المونادات أو الجواهر، واعتبر أن الجوهر الأول ويسميه اللامتناهي وهو يتكون من جواهر أصغر منه، وهذا الجوهر الأصغر بدوره يتكون من جوهر أصغر منه.. وهكذا إلى أن نصل إلى أصغر الجواهر –الجزء الذي لا يتجزأ- وهذا ما يبرر قوله بوجود عدد لا يحصى من العلامات والأدلة التي تؤكد أن هناك إدراكات حسية

أو انطباعات غير متناهية الصغر لا نستطيع إدراكها. إما لأن تلك الإدراكات غير محددة العدد، وإما لأنها وفيرة العدد ومتآنية الوقوع، بل ومتداخلة بحيث يستحيل الفصل بينها، وبالتالي تستحيل معرفتها لأنها لا تترك أي تأثير أو إحساس بها. ومن اجل إثبات أطروحته قدم **ليبنتز** مجموعة من الحجاج من بينها: حجة بالمثال: (حركة الطاحونة، شلال الماء، هدير الموج، صوت البحر...) فكل وضعية من هذه تحمل إدراكات جزئية غير معدودة، وغير متمايزة.

ثم انتقل في الفقرة الموالية إلى الحديث عن أهمية هذه الانطباعات الجزئية وتأثيرها على تربية الأذواق والصور الكيفية للحواس، مادمنا نعجز عن تحديدها بشكل جزئي.

المحور الثالث: الإيديولوجيا والوهم

"ليس الوعي مماثلا للخطأ، فما يميز الوهم هو أنه مشتق من الرغبات الإنسانية، فالوهم هو الاعتقاد الذي يعطي أولوية لتحقيق الرغبات" بهذا القول **لفرويد** نلمح إلى أن اللاوعي يرتبط بالفرد كما قد يرتبط بالجماعة أو بالمخيال الاجتماعي. فهل الوعي قادر على إعطاء صورة حقيقية عن حياتنا الواقعية وعن ذواتنا؟ وكيف يتصور كل من عبد الله العروي و**كارل ماركس** وبول ريكور الإيديولوجيا؟ ثم كيف يتصور فرنسيس بيكون ونيتشه طبيعة الوهم؟

☜ أطروحة عبد الله العروي (*1933- -*) (نص: "مفهوم الإيديولوجيا")

انطلق **عبد الله العروي** إثر تتبعه الكرونولوجي لمفهوم الإيديولوجيا من التصريح بأن هذا المفهوم هو مفهوم دخيل في كل اللغات الحية. إذ ظهر أولا في الفرنسية كعلم للأفكار، ثم انتقل إلى ألمانيا بحمولة دلالية جديدة، ثم عاد من جديد إلى فرنسا مغيرا من معناه السابق. وقال بأنه تعني منظومة فكرية أو عقيدة أو ذهنية. أما في الثقافة الإسلامية في العصر الوسيط، فقد دلت على "الدعوة". ولكي يخرج اللفظ من مأزقه، اقترح تعريبه بكلمة أدلوجة لتصير على وزن أفعولة، وقدم لها بعض الأمثلة (أدلوجة حزب ما، أدلوجة عصر النهضة، وتعني "مجموع القيم والأخلاق والأهداف التي ينوي تحقيقها... نقول إن فلانا ينظر إلى الأشياء نظرة إيديولوجية نعني أنه يتخير الأشياء ويؤول الوقائع بكيفية تظهرها دائما مطابقة لما يعتقد أنه الحق". وانتهى **عبد الله العروي** إلى إقامة تمايز بين الفكر الإيديولوجي المشبع بالذاتية، وبين الفكر الموضوعي.

☜ أطروحة كارل ماركس (*1818م- 1883م*) (نص: "ما علاقة الوعي بالوجود الاجتماعي؟")

يتجاوز **كارل ماركس** فكرة بعض الناس التي تعزل الحياة الفكرية عن الحياة المادية واعتبرها مجرد تخيل وتمثل يفتقر إلى الصحة. وقدم تصوره بضرورة ارتباط الحياة المادية أو التبادل المادي بالحياة الفكرية والتمثلات والوعي، ومعنى هذا أن تبادل الناس الفكري هو بمثابة تجل مباشر لسلوكهم المادي. وبهذا يصير الإنسان هو الفاعل والمنتج للأفكار، وهنا تظهر جدة **كارل ماركس** في فكرة القلب الإيديولوجي كما هو الشأن في الغرفة السوداء لآلة التصوير، أو انقلاب الصورة على شبكية العين. كل شيء حسبه بما في ذلك الأخلاق والسياسة والدين والتاريخ والأدب والفن، بل حتى الإعلاءات ما هي إلا تعبير عن مجرى الحياة المادية... هي مظاهر للوجود الاجتماعي المادي، يقول **كارل ماركس**: "فليس الوعي هو الذي يحدد الحياة الاجتماعية بل الحياة الاجتماعية هي التي تحدد الوعي".

☜ أطروحة بول ريكور (*1913م- 2005م*) (نص: "وظائف الإيديولوجيا")

يؤكد **ريكور** على تعدد الوظائف حيث اقترح تقسيما ثلاثيا لمعنى الإيديولوجيا:

- *الإيديولوجيا كتشويه وكقلب للواقع*، وقد استعار ذلك المفهوم من حقل التصوير الفوتوغرافي في العلبة السوداء، وعليه فنحن ننتج صورة مقلوبة أو معكوسة عن الواقع، وعليه تصبح الإيديولوجيا هي تلك العملية الفكرية التي تعمل التمثلات

الخيالية على تشويه الواقع.

- *الإيديولوجيا كتبرير*: الإيديولوجيا باعتبارها تبريرا حيث تتحول أفكار الطبقة المسيطرة إلى أفكار مهيمنة تدعي الكونية والشمولية أو بتعبير أصح تصبح الإيديولوجيا بمثابة تبرير للوضع القائم.
- *الإيديولوجيا كإدماج*: الإيديولوجيا باعتبارها إدماجا حيث نعيد الأمجاد في المناسبات كأحداث مؤسِّسة للهوية الجماعية، أو تكوين بنية رمزية للذاكرة الجماعية، وتعتبر هذه أهم الوظائف على الإطلاق.

وانتهى **ريكور** في الأخير إلى أن الوهم مجرد تشويه وفساد يصيب التبرير وليس أكثر الظواهر أهمية. فكيف يتصور فرنسيس بيكون دلالات الوهم؟

☜ أطروحة فرنسيس بيكون (*1561*م- *1626*م)، (نص: "الأوهام المحدقة بالعقل البشري")

يميز **بيكون** بين أربعة أنواع من الأوهام المرتبطة بالعقل البشري وهي:

- *أوهام القبيلة وهي الأوهام العامة والمشتركة بين الناس* حيث يشبه العقل البشري العقل البشري بالمرايا المتراتبة التي تسقط خواصها على الموضوعات المختلفة فتشوهها.
- *أوهام الكهف أو الأوهام الذاتية* وهي الأوهام الخاصة بكل فرد، إذ لكل شخص كهفه الخاص به بسبب قراءاته أو السلطة التي يمارسها عليه من يحظى باحترامه أو إعجابه.
- *أوهام السوق أو أوهام الجماعة* وهي المتعلقة بالتجارة بين الناس وعن طريق تواصلهم بواسطة اللغة.
- *أوهام المسرح وهي الأوهام المذهبية* وهي أوهام تسللت إلى عقول الناس من المعتقدات المختلفة للمذاهب الفلسفية الخاصة أو من قواعد الاستدلال التي يساء استعمالها. فما هو معنى الواهم إذن في تصور نيتشه؟

☜ أطروحة فريديريك نيتشه (*1844- 1900*)، (نص: "الغريزة أقوى من الوهم")

انطلق **فريديريك نيتشه** من نقد جينيالوجي للأخلاق، واعتبر بموجبه أن الحياة كلها مجرد أوهام تتسم بطابعين: أولا أنها أوهام نافعة في حفظ البقاء، وثانيا هي أوهام منسية طال عليها الأمد، وقد ساعدتنا اللغة على ذلك بما تحمله من استعارات ومجازات وكنايات وتشبيهات. بل إنه اعتبر الوعي مجرد وهم ومصدر الكثير من الزلات والأشياء الحقيرة، وأنه كاد أن يهلك البشرية لولا تدخل الغريزة كقوة حافظة ومحافظة، أو قوة لا نهائية مهمتها تعديل التوازنات. أما الوعي فهو آخر درجات تطور الجهاز العضوي ومنه فهو الأقل اكتمالا والأكثر هشاشة، وهو مصدر خطر على حياة الإنسان. ثم انتقل إلى تقديم بعض اوصافه (غير مكتمل وغير معطى بشكل ثابت، بل هو نام ومتطور معرقل التطور البشري..